العقيـــدة

كان الإسلام فى مراحله الأولى عقيدة محدودة فى الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية ـ قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا ؛ والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص فى إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : — (ا) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق—إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة فى التطور التاريخى للإسلام .

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شيء من سوء الفهم الذى ألم بالآراء التى كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يتهمون بالكثير من التهم الباطلة . ويعانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم فى العصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوربا تنظر إليهم اليوم بالعين التى كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت فى الحقبة الأخيرة جهود يقصد بها استكشاف ماقد يكون متجمعاً من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التى نجدها فى المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمرى إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية التى أثرت فى بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيدا لاستمرار الوحى لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لاتنقطع : وفيها إبرهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هى إلا توكيد جديد ، وتعديل موحى به لأسمى ماتحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التى غطت عليها المؤثرات الهللينستية[١] . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامى مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة متعصبون حالمون ، يشهرون السيف فى يمينهم ويحملون القرآن فى شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرها فى دين الله وهو قول لاينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الاسلام فضلا عما جبل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب[٢] ، وكانت هذه حركة تقودها أرستقراطية من العسكريين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرها ليس من حسن السياسة فى شىء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوربية . بل هى على العكس من ذلك بنت بيئتها ، فهى إحدى ثمار تلك العناصر التى صيغ منها مجتمعة الأساس الذى قام عليه أيضا الفكر المسيحى فى عصوره المبكرة . وهو اتحاد

---

(١) وهنا نشير إلى آراء كتاب العصور الوسطى تلك الآراء التى ظل الإسلام يقاسى منها إلى اليوم والتى ظلت تحجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ! ؟ ! . . .) انظر مقارنات يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن . وانظر دانتى فى الكوميدية الإلهية (Historie de Byzance) (فاسيلييف ج ١ ص ٢٧٤) (Seminator di scandaloedi scisoma)

(٢) وسواء أجاز لنا تقبل نظرية كاتيانى التى تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (inaridimento) فى شبه الجزيرة العربيه أم لم يجز تقبلها فالواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية العامل الاقتصادى بين أسباب الهجرة العربية .

الثقافتين الهللينستية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله. وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوربا فى العصور الوسطى . ولاشك أن الخصومة الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإبهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته للبشرية فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبحث الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباغتة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من البلاد التى لم تهيئها طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت كلا من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها البدو الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ، وهى نزعة لاتعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ، أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان نقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لايكاد يحق لنا أن نتوقع العثور هنا على وجهة نظر قومية . على أنه حدث فى أقصى الجنوب العربى ، أن أفاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم ونقوشهم — تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشى قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن[1]، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التى هيأت لليمنيين نصيباً ضخما من التجارة مع الشرق الأقصى . أما فى الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المتجولة فى ربوع شرق الأردن والفيافى المترامية التى تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشىء الذى فعلته الدول العظمى فى الأزمنة الحديثة . فقام ملك الغساسنة على أطراف الشام بمؤازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملكة الحيرة « دولة حاجزة » وهى الدولة الفتية التى تعتبر المركز التجارى على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمن قصير . وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدوا سياسيا . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالى من البلاد ، إذ إن يثرب التى عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة غرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتى ميل جنوبا على طريق القوافل الرئيسى الذى يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التى كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلا عما يرد من سلع الهند وأقاصى آسيا ، التى حالت العداوة

(١) انظر ص٢٠١ بعنوان البعثات البشرية والدبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دينية تقوم بها « الكعبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهى البيت العتيق الذى يجتذب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة فى بلاد العرب بأوفر من السياسة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هى المزارات والأضرحة المحلية والأعمدة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأرباب البدائية الغامضة. وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . على أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت فى صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بعقائدها العتيقة ، التى لم تتجاوز فى معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن فى كريت وفلسطين من عبادة الأحجار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نتيجة لشعور دينى أصيل بل عن استمرار التقاليد والعادات . ولم يحاول أحد من العرب البحث فى اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تتجه نحو التوحيد . ولعل مكة هى أهم مثابة دينية عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدسة . وزاد فى مكانتها وأسهم فى رخائها التجارى منسك الحج واحتفالاته التى تقام بها كل عام .

حياة محمد « عليه الصلاة والسلام »

ولد محمد بمكة حوالى عام ٥٧٠ م . وكان ينتمى إلى المجتمع التجارى النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الغنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التى بين أيدينا ليس بالأمر اليسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة عامة للنبوة . والنبوة

— كما هو معلوم — طراز مألوف فى الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته — وفى أثناء « الفترة المكية » من حياته ، وهى المدة التى كانت دعوته الناس خلالها سراً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن تستثير الموضوعات الأساسية التى دعا إليها ، معارضة قوية من المناديين المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه فى وحدانية الله بأى تحد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الآلهة المحليين كشفعاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة ـ تلك المبادئ التى ظل محمد يدعو إليها بحماسة بالغة مستنداً إلى الوحى ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك ذوى المكانة من رجال المجتمع القرشى وأن يعتبروها آراء هدامة . فلا عجب أن قوبلت دعوته العاصفة وفكره الثائر على مقدساتهم ، بنقد وزراية من سادة المجتمع هؤلاء ، وهبط عليه الوحى يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادؤه فقد عززت بالأمثلة والأقيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد فى الكتب التى يؤمن بها أهل الكتاب من قبله . ولم يعد عليه هذا الاستدلال المنطقى إلا بزيادة عمق الهوة التى تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحى يزداد تنديداً بشرك مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يجيز النبى بعض شعائر الكعبة ويتخذ منها ركناً جوهرياً فى الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول فى سيرة النبى (ص) . وهى السنة التى تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة وكانت بيئتها أكثر ملاءمة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثر نزول آيات التشريع فى أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التى بلغها محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التى تحوى الحدود وتمثل

القانون المدنى والجنائى ، فضلا عن عدد من الشعائر والسنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقى من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ماتدل عليه كلمة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التى عول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضربا من الانتقام الإلهى من الكفار الذين آذوا أتباعه وشردوهم من ديارهم . والحق أنه لم يتهيأ شىء أشد إقناعاً للعرب بصدق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذى أصابته غزواته تباعا. وعقد المكيون وغيرهم ممن أضرت بهم هذه الغزوات ائتلافاً قوياً لمهاجمة المدينة ، بيد أن ذلك الائتلاف لم يفز بطائل ، ومن ثم أصبح السبيل ممهداً لعودة النبى ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفى محمد (ص) فى (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانه السياسى والدينى كما أن الاحترام الذى كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقى ماقام به النبى من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيدة

من الجلى أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هى الحافز الذى دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فمنذ تلك اللحظة أضحى انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن

عندما انتشرت قوات العرب فى أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقية ، وهى مهاد الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون «دولة» . ولكنها دولة تتصف بالتسامح المطلق . وبدلا من أن ينشر الفاتحون معتقداتهم بحد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً فى ممارسة عقائدهم على شريطة الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب بما للبلدان المغزوة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية بدورها . وبهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ، كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذللت العقبات التى تحول دون اعتناق الإسلام ـ غيرأن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسى الذى أنجزته الجيوش العربية سبق طبع ذلك الشرق بالطابع الإسلامى بمدة مائتى سنة أو ثلاثمائة .

الباب التاسع

الفتوح الإسلامية

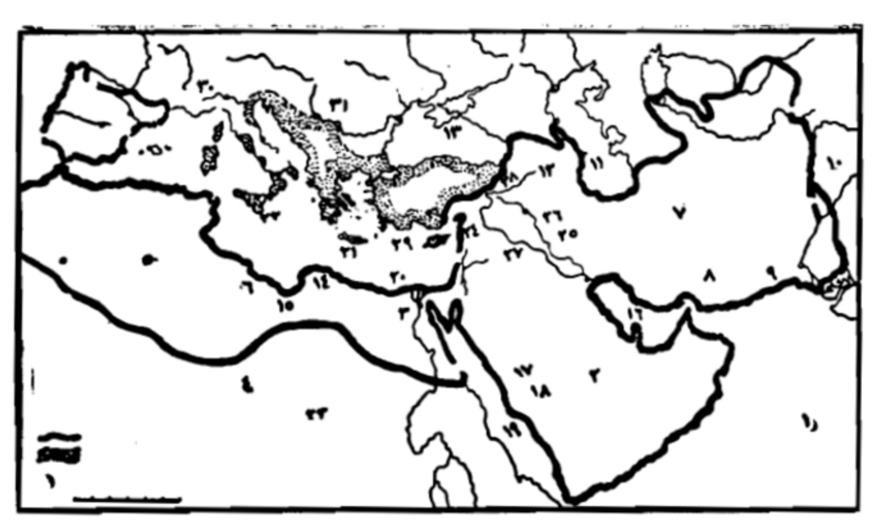
كان للدين الإسلامى — كما رأينا — الفضل فى تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفعهم إلى الفتح العسكرى : ونبتت عن هـذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلمس مفتاح هذه الحركة فى صفات الخلفاء الراشدين. فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة ببلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكأنما قدر للإسلام أن يخر صريعاً فى تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارفة من الشعور القبلى والنزعات الفردية . ولم ينقذ الموقف إلا القواد المسلمون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التى تسكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة ـ هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قمع المرتدين . فاستطاعوا بما شنوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربيـة ، وتمـكنوا من جمع شتات العناصر المتحاربة كلها فى حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولـكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الغارات الأولى على الشام والعراق ، التى كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فـكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شىء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارفة فى اليرموك والقادسية[1] قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ما جنبه التمزق وتفرق الـكلمة بإنفاذه جموع حشوده على البلاد المجاورة. ذلك أن الوقت قد تهيأ فعلا لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

---

(١) انظر ص ١٠٣

المادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربيـة مباشرة بين إمبراطوريتى روما وفارس .

ولم تكن الإمبراطوريتان فى مركز يؤهلهما للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة تفشت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا عاد النظام فى آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التى كانت فى ظاهرها عظيمة القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شىء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثا بمصر والشام من الأراضى فى مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التى أفضت إلى تحويل كفة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التى استمرت طويلا أفسـدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذى انصرف إلى الخصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديما نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجند . فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة فى بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين ببلادهم ، أقل منهم تمرداً . وقد أدت هـذه العيوب إلى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدفاع نيط هنا بجند من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم فى شئون الحرب ، على حين كان يشترك فى القيادة خمسة قواد أنداد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . وفضلا عن خطورة الموقف العسكرى ، كان هناك خطر



(٩) خريطة العالم الإسلامى

١ ــ المحيط الهندى	٢ ــ بلاد العرب	٣ ــ مصر
٤ ــ الصحراء	٥ ــ البربر	٦ ــ أفريقيا
٧ ــ فارس	٨ ــ كرمان	٩ ــ مكران
١٠ ــ هندوستان	١١ ــ بحر قزوين	١٢ ــ تفليس
١٣ ــ البحر الأسود	١٤ ــ برقة	١٥ ــ طرابلس
١٦ ــ الخليج العربى (الفارسى)	١٧ ــ الحجاز	١٨ ــ مكة
١٩ ــ البحر الأحمر	٢٠ ــ الإسكندرية	٢١ ــ كريت
٢٢ ــ صقلية	٢٣ ــ القاهرة	٢٤ ــ أنطاكية
٢٥ ــ العراق	٢٦ ــ بغداد	٢٧ ــ نهر الفرات
٢٨ ــ أرمينيا	٢٩ ــ جزيرة قبرص	٣٠ ــ الفرنجة
٣١ ــ الآفار		

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب وانتهجت سبيل التسامح الدينى ، فلربما كان من المعقول أن تبقى على ولاء الشام ومصر نحو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذه هرقل من إجراءات لم يكن منها بد ، عادت على الدولة بتنفير جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أموال قد استنفدته حروب الفتوح ، كما أن الولايات التى استردت حديثاً سرعان ما ألزمت بتحمل نصيبها كاملا فى أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . ومما زاد الموقف ببلاد الشام تفاقما ، ما كان بين اليهود والمسيحيين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح هاجت بالمدن الكبرى . وفى (٦٣٤) صدرت الأوامر بتعميد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة للتوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إنزال الاضطهاد بكل من الشام ومصر على السواء . وتتجلى نتيجة ذلك فيما تشهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التى تعبر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتعدها آية على الانتقام السماوى من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحدود النازلون على أطراف الشام على الغارة منذ زمن بعيد على مدن تلك الثغور ، ولذا لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أى قلق فى بيزنطة . إذ حدث فى (٦٢٩) قبل وفاة النبي بزمن طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجوماً قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يعسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة باسلة لإنقاذ المدينة ولكنها لم تجد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخذت المدن الباقية تخر الواحدة تلو الأخرى صريعة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيانها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستمد هرقل بشجاعة لا تتزلزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت فى أثناء الشتاء بعصبية محمومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عددا إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتها فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) تقرر بها مصير الشام . وقد ألقى هرقل بكامل قواته فى تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل فى ملاقاة العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحدا بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت فى أيدى العرب المدن الساحلية : وهى عكا وصور وصيدا وبيروت ؛ وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهى العاصمة الإدارية للبلاد فى (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون فى اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة فى القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلا بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بغير نظام بعد أن شتت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيشفون) فاستولت عليها وانتهبتها . وسرعان ما اجتاحت جيوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت فى سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفى نفس الحين ، واصل الفاتحون حملاتهم فى الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب ، أما آخر أكاسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقى مصرعا غير كريم عند مرو على تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصيلة التى لا تمت للسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل تقاليدها الممتازة التى دامت نحو ألف عام ، أن تبدى من عنيد المقاومة للغازين مالم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس فى الاحتفاظ بلغتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارسية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولكن قوة الاندفاع العربى لم تكن تبددت بعد . ومن ثم صار لزاماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاعة السيل العربى الجارف . وكما هو الشأن فى الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التى واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت عرى الإمبراطورية الضخمة لخانهم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردحاً من الزمان بسبب ما نشب فى العراق من خلافات ثم لم يلبث أن مضى فى سبيله من جديد ، ولم تنقض عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفى بواكير القرن التالى انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقى ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانج الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة فى الصين ، فما وافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى نصابها . وعنـد ذلك كانت قدم الإسلام قد توطدت راسخة بكل من بلخ وسمرقند، وسيطرت قبضته على التركستان الغربية، وأمسى متحكماً فى ممرات هضبة البامير ، وفى تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون فى الشمال الغربى من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهى السند وكشمير والبنجاب تخضع لأمراء الجوبتا النازلين جنوبى تلك الإمبراطوريات. على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الكامل للفتوح الإسلامية الذى بدأ فى مستهل القرن التالى ، حمل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التى بلغها فيما بعد أمراء البنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقية

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن فى جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجىء ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملكه مصر من الأراضى الغنية بالقمح ، وما لها من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دائمة لكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هى المركز الرئيسى لبناء السفن فى شرق البحر المتوسط ، ثم قيض لها إبان القرون التالية أن تصير مهداً لقوة الإسلام البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريرك كيروس (Cyrus) ، الذى كان يتولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائد القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائد محنك أظهر جدارته فى حروب الشام . ويتركز الفتح فى حصار حصن بابيلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن العسير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المعقدة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى ويحول دون تدمير الممتلكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بابيلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد درت سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل العنصر العربى عن باقى سكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بابيلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلما حدث فى بلاد العراق أن مقر الحكم لم يجعل فى المدائن (طيشفون) بل فى الكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقية بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

الألف كتاب
٦٢٣

ميلاد العصور الوسطى

٣٩٥ – ٨١٤

تأليف

هـ. سانت ل. ب. موس

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

راجعه

الدكتور السيد الباز العريني

١٩٦٧

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

دار الاتحاد العربي للطباعة

صاحبها محمد عبد الرازق

١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش

تليفون : ٩٣٤٠٩٨